الخطاب الشعري

٩

(مصطلح الحداثة)

في أواخر القرن الماضي ازدادت موجة التقليد الغربي بحجة التجديد والتواصل ، ومسايرة التطور والتغيير الذي ساد العالم ، وراحت تتلى على مسامعنا بين الحين والآخر مسميات ومصطلحات مثل مصطلح الحداثة ، تلك الكلمة التي راحت الألسنة تلوكها وتتشدق بها ، وانقسم الناس إزاءها إلى قسمين : قسم يردد المصطلح مجرد ترديد ، دون علم بما تتضمنه الكلمة ، وما يدور حولها من قضايا على الساحة وهؤلاء أشد خطرا ، وأكثر ضررا من غيرهم من طبقات المجتمع .

لقد حولهم التقليد والجري وراء كل ما يأتي به الغرب إلى مسوخ آدمية لا ملامح لها وصاروا مجرد أسماء ، إذ حولهم التقليد إلى دمى يحركها الغرب كما يحرك اللاعب قطع الشطرنج هنا وهناك ليكسب الجولة ، وغريب الأمر أن الواحد منهم يحاول إقناعك بكلامه ووسائله . والذي يثير الدهشة أن كثيرا من هؤلاء لا يعرفون شيئا عن تراثنا القديم بل لم يكلف الواحد منهم نفسه مجرد الإطلاع على تراثنا الأدبي القديم وما فيه من درر . ولأن فاقد الشيء لا يعطيه فقد بدا تخبطهم واضحا ، وبدا ضعفهم ملموسا في كل ماجاؤا به وما حاولوا إقناعنا بأهميته ، ومن ثم أصبح موقفهم مخزيا ، فلاهم اهتموا بالتراث ، ولا هم أتوا بالجديد المفيد .

أما الفريق الآخر فهم أصحاب الدراية بهذه المصطلحات والمسميات ، لذلك استفاضوا في الحديث عنها ، وتفضيلها على كل ما وصل إلينا من تراث قديم ضاربين بكل إبداع القدماء عرض الحائط تحت دعوى تخلفه وعدم مسايرته الواقع ،

ناسين أو متناسين أن هذا التراث الأدبي العريق أمد الإنسان العربي بزاد المعرفة والأدب قرونا طويلة ومتجاهلين – عن عمد – أن هذا الأدب العريق استوعب حياة الإنسان العربي عبر العصور المختلفة في كل نواحي الحياة ، ومازال يستوعبها حتى الآن بما فيها من عصرية وتطور وبما تحمل من مستجدات العلم ومكتشفاته ، هذا التراث الأدبي هو الذي قدم إلينا الشعراء الجاهليين الذين أمدتهم البيئة العربية برفد من الإلهام والمعرفة الشاملة فأبدعوا لنا المعلقات التي كتبت بماء الذهب – كما يقال – وعلقت في صدر الإنسان العربي ووجدانه فقرأناها ووجدنا فيها ما يخلب اللب ، ويسلب العقل ، ومازالت المرجع والملاذ الذي نأوي إليه ، والواحة الظليلة التي نتفيأ ظلالها وخيرها كلما قسا علينا هجير الحياة ، وهذا التراث هو نفسه الذي قبس منه المتنبي والبحتري وأبو تمام وابن الرومي وأبو العلاء المعري والشريف الرضي وغيرهم من عماليق الشعر والأدب الذين ملؤوا الدنيا شدوا وغناء ، وأشبعوا في نفوسنا مشاعر وأحاسيس فياضة وحلقوا بأرواحنا هنا وهناك في عالم من روعة البلاغة ورقة المشاعر.

أنا لست أتحدث في هذا الشأن لأدافع عن الأدب العربي ، لأنه ليس في حاجة إلى من يدافع عنه لكنها غصة في الحلق ، وحسرة في النفس مما آل إليه حالنا الأدبي اليوم ، وما أصاب القصيدة العربية من عبث العابثين ، وكيد الكائدين الذين يحاولون جاهدين تشويه معالمها والذهاب برونقها وروعتها ، وطمس معالم جمالها باختراع أشكال غريبة يضعون لها مسميات أغرب .

وما صمود البلاغة العربية أمام موجات الغزو المتعاقبة إلا الدليل الدامغ والحجة القوية على عظمتها وأنها تستمد قوتها من داخلها .

لقد تعاقبت موجات الغزو المغولي والتتري والغربي على بلاغتنا العربية موجة إثر موجة ، فما وهنت ، وما انحنت إلا لخالقها الأعظم ، وظلت محتفظة بطبيعتها ورونقها ، ولم تكن جامدة في يوم من الأيام ، فقد كانت تأخذ وتعطي . وتتفاعل مع اللغات الأخرى وما فيها من آداب وبلاغة ، وكانت المنهل العذب الذي نهلت منه الآداب الأخرى ، وكانت على علاقة وطيدة مع جاراتها من اللغات : الفارسية واليونانية وغيرها ، فما الذي يحاوله هؤلاء العابثون اليوم ؟ إنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ولكن الله القدير متم نوره ، وحافظ لغته ولو كره العابثون .

لقد غابت عن أذهان هؤلاء حقيقة مهمة ، أعتقد أنهم يحاولون تناسيها ، وهي أن هذه اللغة محفوظة من قبل المولى عزوجل ، لأنها لغة القرآن الكريم ، الذي أخبر رب العزة أنه مكلف بحفظه وصيانته فقال في محكم التنزيل : " إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون " وانظر إلى الآية وما احتشد فيها من مؤكدات ، لم تأت من فراغ بل لأن المولى سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ويعلم بقدرته أن سيأتي أمثال هؤلاء ، وغيرهم ، ولكنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

وإذا كانت بلاغتنا العربية قد استوعبت مطالب الإنسان العربي وظروفه فقد كان تقاعس أصحابها ، والقائمين عليها سبيلا لهؤلاء للخوض فيها والنيل من قوتها وروعتها ، تحت ادعاء هرمها وشيخوختها ، علما بأنها ما تزل في عنفوانها ، وما تزل قادرة على العطاء كما كانت من ذي قبل .

لقد استطاع نقاد الأدب ومؤرخوه أن يخوضوا في جوانب اللغة وأن يقوموا بوضع أساسياتها وقواعدها ، فكانوا بحق خير مشرعين وواضعين ، فلم يتركوا شيئا دون التحدث فيه لذا جاءت معاييرهم البلاغية والنحوية ملائمة ظروف الإنسان العربي ، شاملة ما حوله وما يتعلق به في حياته اليومية ، وما فيها من أفراح وأتراح وتقلبات وكانت معه في سلمه وحربه ، في حله وترحاله ، في رضاه وسخطه ، في استرخائه وفي ثورته ، في نومه ويقظته ، لاتفارقه في أي زمان أو مكان وكانت له نعم العون والمعين .

نعم ، لم تكن البلاغة العربية قاصرة في يوم من الأيام ، ولم تتخل عن العربي أبدا ، بل كانت الواحة الظليلة التي آوى إليها العربي وتفيأ ظلالها ، واتخذ منها قيثارة يعزف عليها ألحانها ويبثها همومه وأشجانه موقعة في شكل قصيد رائع يأخذ بمجامع القلوب .

وما المعلقات السبع إلا نتاج هذا الطرح الطيب (أقصد بلاغتنا العربية) : نظام دقيق لانبو فيه ولاخلل وصياغة محكمة في جزالة وقوة وحشد هائل من الصور الجمالية والمحسنات البديعة ، نسوق هذا الكلام مدعوما بالأدلة ، وإليك واحدا منها:

يقول عمرو بن كلثوم في افتتاحية معلقته المشهورة متغزلا :

ألاهبي يصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا
مشعشعة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا
ترى اللحز الشحيح إذا أمرت عليه لماله فيها مهينا

ثم يقول متغزلا :

ومأكمة يضيق الباب عنها وكشحا قد فتنت به فتونا
وثديا مثل حق العاج رخصا حصانا من أكف اللامسينا

ثم يقول مفتخرا:

أبا هند فلاتعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

انظر إلى دقة الصياغة في اختيار الألفاظ وما تحمل من دلالات : لا تستطيع أية كلمة أن تحل محل كلمة (مأكمة) ، ثم انظر إلى ملامح محبوبته الجسدية التي رسمها كأنه الفنان المصور ، وتلك التفاصيل الدقيقة التي تبرز أنوثتها أجمل تصوير وأروعه ثم تأمل صفات الفخر التي سلط عليها الضوء ليخبرنا أن قومه أشداء على الأعداء يحققون ما يريدون تحقيقه لايقف أمامهم عائق ، حتى كأن الصغير فيهم مكتمل الرجولة يهابه الجميع : الأقوياء قبل الضعفاء . ثم تعال معي أخبرك بما توج هذه الصياغة الجيدة ، أتدري ما هو ؟ إنها الموسيقا المنبعثة من الوزن الواحد المنتظم الذي ترقص له القلوب وتهتز طربا على نغمات بحر الوافر التي وقع عليها الشاعر وصاغ فكرة قصيدته .

وتأمل معي هذا النموذج أيضا :

يقول عنترة العبسي في معلقته المشهورة :

أثني على بما علمت فإنني سمح مخالقتي إذا لم أظلم
يخبرك من شهد القيعة أنني أغشى الوغى و أعف عند المغنم
ولقد شفى نفسي و أبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم
مازلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم
لو كان يعلم ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

فروسية ملموسة ، وأخلاق عربية واضحة تنبض بها هذه الأبيات وجواد عربي أصيل ، فارس سمح الخلق لا يعنيه أمر سوى خوض المعركة دفاعا عن الحق ، ليس متكالبا على الدنيا ، عفيف عند توزيع المغانم ، ثم تأمل جمال الصورة التي رسمها لهذا الجواد القوي الذي انهالت عليه رماح الأعداء غزيرة كأنها الحبال الكثيرة المدلاة في البئر ، فراح يتلقاها بصدره القوي ولما تكاثرت عليه النبال تألم حتى كاد أن يتكلم ، لكنه لا يعرف الكلام ، وحين تتأمل النص تجد فيه روحا جميلة تسري في ثناياه تنبعث من أمور كثيرة : من الخيال الرائع في قوله (فازور من وقع القنا بلبانه) وقوله (لو كان يعلم ما المحاورة اشتكى) وقوله (شكا إلى بعبرة وتحمحم) .

ثم تأمل هذا الحوار الهامس بين الشاعر ومحبوبته ، يدعوها فيه إلى الثناء عليه بما فيه من صفات طيبة . فهو سمح الأخلاق مع أهله وأصدقائه ، قوي عنيف مع الأصدقاء ، وهي تعلم عنه هذه الصفات ، ولكنه دلال المحب ، لذلك يذكرها .

أما الموسيقا في الأبيات فأكاد أسمع رنينها المنبعث من تفعيلات بحر الكامل ، وهو من البحور المرقصة التي تطرب لها الأذن وترتاح لسماعها .

لهذا كتب لتلك الأعمال الرائعة البقاء والخلود ، وظلت على مر عصور الأدب قبسا ننهل منه ، ونرتوي من معينه العذب .

إن علينا أن نرعى هذا التراث ونحافظ عليه بكل ما نمتلك من وسائل ، وإذا أتينا بشيء جديد ، مسايرة لمتطلبات العصر ، نجعلها إضافة ، ويظل التراث كما هو محفوظا محاطا برعايتنا وتقديرنا .